

التواصل وإشكالاته اللسانية والإنسانية *Communication and its linguistic and human problems*

د. سهيلة سلطاني¹ / جامعة 8 ماي 1945-م-قائمة (الجزائر)، soltani.souhayla@univ-guelma.dz

تاريخ النشر: 2023/06/30

تاريخ القبول: 2023/06/10

تاريخ الاستلام: 2023/02/15

ملخص

إن الحاجة لوضع المصطلح دلالة قطعية على تشكّل أسس واضحة المعالم لعلم، أو مسألة، أو قضية معرفية، فهو علامة بيّنة، وسمة مائزة على تطوّر العلوم وتفرضها؛ بل هو أمانة دالة على اكتمال الملامح العامة للمفاهيم التي تنظم الأفكار، وتحدد الفروقات والتقاطعات بين المصطلحات؛ إذ يأخذ المصطلح على عاتقه مهمة ضبط الحدود، والمسميات، والتعريفات التي تحدّد نطاق اشتغاله، وما يطرأ عليه من تطوّرات في المعنى بانتقاله من حقل إلى حقل، ومن علم إلى علم، وكمثال بارز على ذلك "مصطلح التّواصل" الذي عرف اتساعا وتشعبا واسعين المجال والنطاق، وتجاذبه بين علوم شتى خير دليل على ذلك؛ إذ تداخلت في تناوله اهتمامات لغوية، وفلسفية، ومعرفية، أخذت على عاتقها مهمة تحديد معانيه، ومقاصده، وطرائق اشتغاله، بالإضافة إلى أهدافه، وغاياته، كلّ بحسب تخصصه العلمي، وحقله المعرفي، وهذا ما جعله مرنا يصعب الإحاطة به؛ ومن هنا سنحاول تسليط الضوء على الحدود الفاصلة في استعمال المصطلح، تحديدا ضمن فهمه في سياقه العام.

الكلمات المفتاحية: التواصل، اللسانيات، هابرماس، السياق.

Abstract:

The need to put the term is a definitive indication of the formation of clear foundations for a science, issue, or knowledge issue, as it is a clear sign, and a distinctive feature of the development and branching of sciences; Rather, it is a sign indicating the completion of the general features of the concepts that organize ideas, and define the differences and intersections between the terms. As the term takes upon itself the task of setting the boundaries, nomenclature, and definitions that define the scope of its work, and the developments that occur in it in terms of its transfer from field to field, and from science to science, as a prominent example of that is the term "communication", which was known for wide expansion and ramifications in scope and scope. And its attraction between various sciences is the best evidence of that. Linguistic, philosophical, and cognitive interests intertwined in dealing with it, and it took upon itself the task of defining its meanings, purposes, and methods of operation, in addition to its goals and objectives, each according to its scientific specialization and knowledge field, and this is what made it flexible and difficult to understand. Hence, we will try to shed light on the dividing lines in the use of the term, specifically to ensure understanding in its general context.

Keywords: communication, linguistic, Habermas, context.

¹ د. سهيلة سلطاني ، الإيميل: soltani.souhayla@univ-guelma.dz

1- مقدمة:

عُرف الاهتمام بالمصطلح قديماً في الغرب ولدى العرب، ففي الحضارة اليونانية كان الفلاسفة والمناطقية يأخذون على عاتقهم مهمة ضبط المصطلح، وهو الأمر الذي دفعهم للمناظرة، والسجال، والجدل من أجل تحديد المقصود من اللفظ؛ فقد ناظر سقراط السفسطائيين محاولة منه في وضع حد للتلاعب اللفظي الذي كانت تمارسه هذه الطائفة لجزمه بعدم جدية ضبط المفاهيم لديهما، وذلك أن شغلهم الشاغل كان إفحام الخصم بالحجج المغالطة المعوجة، فلا وجود لأساس معرفي ولا لدليل علمي يستندون إليه، الأمر الذي جعل فكرة المصطلح غير واردة لديهم، لتغيره تبعاً للموقف الجدلي؛ وعليه جعل سقراط غاية العلم إدراك الماهيات؛ أي تكوين معانٍ تامة للحد، وكان يستعين بالاستقراء، ويندرج من الجزئيات إلى الماهية المشتركة بينهما، ويردُّ كلَّ جدل إلى الحدِّ والماهية⁽¹⁾، ليصير الحد وضع الألفاظ والمعاني موضعها المناسب، وضبطها ضبطاً دقيقاً يسمح باستعمالها على وجه دون آخر.

كذلك أدرك العرب القدامى دور المصطلح وقيمه المعرفية، مركزين على أهميته في ضبط المفاهيم، وتحصيل العلوم، فذكر القلقشندي (ت 821هـ): «أن معرفة المصطلح هي اللازم المحتّم. والمهمّ المقدم. لعموم الحاجة إليه. واقتصار القاصر عليه»⁽²⁾.

أشاد الناقد بضرورة المصطلح القصوى في الفهم والإفهام؛ بل جعل ذلك أمراً محتماً لا غنى عنه؛ ولعل هذا ما دفع بالنقاد واللغويين إلى ضبط مفهومه، فعرفه الشريف الجرجاني (ت 816هـ) أنه: «عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما يُنقل عن موضعه الأول، وإخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر، لمناسبة بينهما»⁽³⁾.

يربط الجرجاني المصطلح باتفاق الجماعة على وضع اللفظ لمعنى يدل عليه أو يراد منه، مشروطاً الخروج به من معنى عام هو الوضع إلى معنى خاص هو الاصطلاح، بشرطة وجود مناسبة بينهما.

كذلك نجد الجاحظ (ت 255 هـ) يدلي بدلوه، فكان من السابقين إلى طرح إشكال المصطلح، فاهتمامه البالغ بثنائية اللفظ والمعنى جعلته يشيد بأهمية المصطلح وقيمه القصوى في الوقوف على أهمية الثنائية في علم النقد وعلم الكلام، يقول: «هم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطالحوا على تسمية ما لم يكن في لغة العرب اسم، فصاروا بذلك سلفاً لكل خلف وقودة لكل تابع»⁽⁴⁾.

وفي العصر الحديث ظهرت جهود مكثفة في دراسة المصطلح أفضت إلى ظهور نظريات عديدة، ذات روافد مختلفة، أبرزها الرافد الفلسفي الذي يرى المصطلحات وسيلة اتصال لصيقة بطبيعة المفاهيم، ولهذا فإن

(1) ينظر: عمر مهيبل: إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012م، ص 204، 207.

(2) _أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م، ج1، ص 8.

(3) الشريف علي بن محمد الجرجاني: كتاب التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، 1998م، ص44.

(4) _الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م، ج1، ص139.

البحث المصطلحي يجب أن ينطلق من دراسة تلك المفاهيم، والعلاقات القائمة بينها، وخصائصها، ووصفها، وتعريفها، ثم صياغة المصطلحات التي تعبر عنها، وتنميط المفاهيم والمصطلحات، وتدويلها⁽⁵⁾ بالإضافة إلى الرافد الفلسفي هناك الرافد اللغوي الذي يضاهيه أهمية ذلك أن المفهوم الذهني بحاجة ماسة لدلالاته اللفظية التي تظهره وتبرزه في معان وألفاظ مضبوطة، وفي سياق مناسب، وهذا تعريف موجز للشاهد البوشيخي ذكر فيه: أن المصطلح كل لفظ يتبين من قرائن استعماله أنه أتى به من المجال اللغوي العام ليعبر به عن معنى ما في سياق لغوي خاص⁽⁶⁾.

وقد أوجز يوسف وغليسي تعريفا شاملا للمصطلح صاغه كالآتي: «إن المصطلح علامة لغوية خاصة تقوم على ركنين أساسيين، لا سبيل لفصل دالها التعبيري عن مدلولها المضموني، أو حدّها عن مفهومها، أحدهما الشكل (Fourme) أو التسمية (Dénomination). والأخرى المعنى (Sens) أو المفهوم (Notion) والتصور (Concept)... يوحدتهما التحديد أو التعريف (Définition)، أي الوصف اللفظي للتصور الذهني»⁽⁷⁾.

تعد قضية المصطلح من أعقد القضايا على المستوى المعرفي عامّة واللغوي خاصّة، وهو مفهوم ومعنى يأتي تبعا للغرض الذي ينتجه ليدخل في المنظومة التواصلية العامة والمشاركة، لذلك فإن هذه المفاهيم وتلك المعاني بحاجة إلى قوالب تجسدها هي الألفاظ.

أولا. مصطلح التواصل:

إذا كان التواصل هدف الإنسان في حياته الاجتماعية بعده الوسيلة الأساسية للتعرف، فمن المهم جدا كشف النقاب عن الغموض الذي يكتنف المصطلح؛ لأنه «ليس من مسلك يتوصل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية حتى لكانها تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال ليست مدلولاته إلا محاور العلم ذاته، ومضامين قدره من يقين المعارف، وتحقيق الأقوال، فإذا استبان خطر المصطلح في كل فنّ توضح أن السجل الاصطلاحي هو الكشف المفهومي الذي يقسم للعلم سوره الجامع وحصنه المانع»⁽⁸⁾. ومادام المصطلح مفتاح العلوم وخالصة المعارف، فلا بد للدارس من إجادة رسم الحدود بين المصطلحات، وتدقيق النظر في التقاطعات التي يحدثها المصطلح الواحد بين العلوم ليعبر عن التداخل المفاهيمي والتكامل المعرفي بينها.

أما في الماهية الاصطلاحية فقد أدّى التعالق والتشابك الذي أحدثه المصطلح بين التخصصات المختلفة إلى اتساع حمولته الدلالية، الأمر الذي جعل من الصعوبة بمكان الاتفاق على مفهوم موحد له؛ وعلى أساس من هذا سنحاول تتبع التطور الذي طرأ على المصطلح.

مصطلح التواصل "communication" مرتبط أساسا بمعنى المشاركة، سواء ارتبط الأمر بالاشتراك في

(5) _ علي القاسمي، علم المصطلح بين علم المنطق و علم اللغة، مجلة اللسان العربي، المغرب، 1984، العدد 30. ص 271.

(6) _ الشاهد البوشيخي: مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1982، ص 161.

(7) _ يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في التراث النقدي العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2008م، ص 27، 28.

(1) _ عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات، عربي - فرنسي، فرنسي - عربي، (د.ط)، الدار العربية للكتاب، تونس 1984م،

المعلومات، أم في المشاعر، أم في طريقة التفكير.

يبدو أن هذا المدلول بقي متداولاً طيلة قرون، فقد دون باتسون "pateson" وآخرون ما يلي: تواصل "communiquer" والتواصل "communication"، ظهر المصطلحان في اللغة الفرنسية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر. وكان المعنى الأساسي "شارك في" بمعنى "à participer"، وهو جد قريب من اللاتينية وفعلها "communicare" التي تعني أن يكون مشتركاً في علاقة⁽⁹⁾.

هذا أول استخدام للمصطلح، والمشاركة تعني بداية الحوار والتفاعل بين الأشخاص، ثم تطور المصطلح فأضيف لمعنى المشاركة مصطلحين قريبين جداً من "communier" و "communion"، التي تعني مشاركة الرأي ومشاركة وحدة الشعور، ثم ظهرت في القرن السابع عشر أدوات جديدة للتواصل "moyens de communication" شملت القطارات، والتليفونات، ووسائل الإعلام؛ أي النقل من "أ" إلى "ب"، ومعنى النقل هو الذي شاع واحتوى كل المعاني السابقة في الفرنسية المعاصرة، ثم تطور المصطلح شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح نظرية في التواصل والإعلام⁽¹⁰⁾.

والملاحظ أن هذا المصطلح انتشر بوتيرة سريعة أثرت على رؤية الدارسين، فتعددت بذلك مفاهيمه حتى غدا من الصعوبة بمكان الوقوف على تعريف دقيق وموحد، ونلمح هذا التعدد لدى جون ديدبوا "J.dubios" الذي أورده في "قاموس اللسانيات"، تعريفين هامين:

1. التواصل تبادل لفظي بين متكلم ينتج قولاً موجّهاً إلى متكلم آخر مستمع ومخاطب، ملتصقاً رداً مباشراً أو غير مباشر (ضمني)، وذلك على منوال الملفوظ الذي أنتجه المتكلم، ومنه: التواصل هو تبادل كلامي بين ذات منتجة وأخرى مستقبلية لغرض معين.

2. التواصل سيرورة كلامية تنتقل من نقطة إلى أخرى عن طريق علامات ذات معنى يقوم المتلقي بفكّها⁽¹¹⁾.

نلاحظ أن المفهوم الثاني أوسع من الأول لإشراك العلامات الحاملة للمعنى والمفسّرة بواسطة اللغة؛ أي إدخال كل ما له علاقة بالتواصل، ما يعني أن التواصل عملية مركبة تتضافر فيها مجموعة من العناصر الدالة والمتفاعلة فيما بينها، والمتبادلة بين ذات متلقّظة وأخرى مستمعة ورادة في نفس الوقت لتحقيق منفعة خاصة.

أما في "معجم التواصل" فنجد أن: «التواصل هو عملية جعل فرد. أو مجموعة. متموضعة في عصر من نقطة س يشارك في التجارب التي ينشطها محيط فرد آخر متموقع في عهد آخر، مستعملاً عناصر المعرفة المشتركة بينهما (التجربة الوكيلية vicarial) ويعني بالتجربة الوكيلية أو النائية هنا نقل التجربة بين النقطتين المتماثلتين في عهدين معينين بواسطة ما يمكن أن يكون مشتركاً بين فردين أو مجموعتين»⁽¹²⁾.

⁹ _ Bateson, Goffman et autres : la nouvelle communication, Textes recueillis et présentés ed, Seuil, 1981, P13.

¹⁰ _ Ibid.

¹¹ _ John Dubois : Dictionnaire de linguistique, Paris librairie la rousse, 1973, P 96

⁽¹²⁾ _ عبد الجليل مرتاض: اللغة والتواصل، اقترابات لسانية لإشكالات التواصل للتواصلين الشفوي والكتابي، دار هومة، الجزائر،

طرح هذا التعريف إشكالية التواصل بين عصرين عن طريق المعرفة المشتركة بين الجماعات المتواصلة.

ثانيا: التواصل فاعلية لسانية وظاهرة اجتماعية:

أصبح التواصل _ نظرا لتعدد الميادين المعرفية المهمة به _ علما تتشاركه تخصصات مختلفة، ساهمت في إنتاج نظرية عامة للتواصل الإنساني، ومن أبرز المساهمين في ذلك نذكر:

_ هيدغر "M. Heidegger" بين الكينونة والزمان:

استقر تفكير هيدغر بعد رحلة طويلة من البحث والمعانات بين الكينونة والزمان عند اللغة بعدها "بيت الكائن"، مميّزا الإنسان عن بقّة الكائنات الأخرى ناظرا إليه من زاوية علاقته بالوجود العام، وضرورة إعادة ترتيب أمور الحياة والفكر معا وفق متطلبات الكينونة التي تظلّ المعبر لفهم الوجود، فالإنسان لا يقوم إلا خارج ذاته. وهذه الفلسفة قائمة على التواصل بين الكائن وكينونته، والتواصل بين الكائن والآخر، والتواصل بين زمانية الكائن وتاريخيته⁽¹³⁾.

قدم هيدغر الخطوط الرفيعة للتواصل والاتساق ممجّدا العمل الجبار للغة، ودورها في ربط الكائن بذاته وبالأخر وبتاريخه المشترك مع الجماعة في الزمان والمكان؛ فاللغة تمثل الهوية والوطن في آن واحد.

_ فيردنان دي سوسير "F. D.Saussure" بين اللغة واللسان والكلام:

دي سوسير أول من دعا إلى دراسة اللسان البشري دراسة علمية موضوعية تبتعد عن الدراسات التاريخية للغة، جاعلا اللسان موضوع علم اللسانيات، ومن هنا حدّد مفهومه بقوله: «اللسان هو رصيد يستودع في الأشخاص الذين ينتمون إلى مجتمع واحد بفضل مباشرتهم للكلام، وهو نظام نحوي يوجد وجودا تقديريا في كل دماغ، أو على الأصح في أدمغة المجموع من الأشخاص؛ لأن اللسان لا يوجد كله عند أحد منهم، بل وجوده بالتمام لا يحصل إلا عند الجماعة ... وبفصلنا اللسان عن الكلام نفصل في الوقت نفسه ما هو اجتماعي عما هو فردي، ما هو جوهري عما هو إضافي أو عرضي»⁽¹⁴⁾.

أعلن دي سوسير عن فتح الدرس اللساني على مصراعيه في إنجازهِ "محاضرات في اللسانيات العامة"؛ حيث فرّق بين اللغة التي تمثّل النظام العام المشترك بين البشر، وبين اللسان وأقلّ تقدير له الجماعة اللغوية الواحدة، والتي يجمعها نظاما لسانيا خاصا، وهو حصيلة لغوية يمكن تحديدها وظاهرة اجتماعية توصف بها مجموعة لسانية معينة، وبين الكلام الذي هو أصوات وحروف تمثّل الاستعمال الفردي للغة، والمستمد قوانينه من اللسان، وهو الجانب العملي للغة، والمختلف من فرد لآخر بحسب منطق تفكيره، وبحسب تعليلاته وتوتراته، حيث تدخل الصياغة ومهارة التشكيل، وهو تفريق صريح بين الجانب المنطقي للغة والجانب التواصلية؛ بمعنى التفرقة بين ما هو النظري وما هو العملي.

_ أ. ن. تشومسكي A.N. Chomsky والكفاية اللغوية:

(13) _ ينظر: عمر مهيبل: إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012م، ص 204، 207.

(14) _ خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، دار القصة للنشر، الجزائر، ط2، 2006م، ص 12.

ذهب تشومسكي إلى وضع نظرية لغوية في التوليد والتحويل، كان المقصود منها وصف التراكيب اللغوية وتحليلها محاولاً تفجير الطاقة الكامنة بداخلها، معللاً استطاعتها النمو والتطور كلما أضيفت لها معرفة جديدة لتعدد طرق الإدراك ووسائله المعرفية بتعدد النشاط اللغوي ذاته من توليد نحوي وانتشار دلالي، حيث يفيضي بعضها إلى بعض، وهذا مقصوده من التوليد، الذي يستند إلى ثلاث مكونات رئيسية هي: المكون النحوي، والمكون الفنولوجي، والمكون الدلالي.

سعى تشومسكي استطاعة أداء الكلام كفاية لغوية حصرها في القدرة والأداء، مفرقاً بين القدرة على الكلام وبين أدائه؛ فالأمر متعلق بأداء الكلام Performance، الذي لا يرتبط بتاتا بالكفاية اللغوية Linguistique Compétence التي هي الموضوع الفعلي الوحيد للنظرية اللسانية، إنّ الأداء الكلامي نشاط تجريبي للفرد عندما يتكلم، والكفاية اللغوية هي القدرة اللسانية لفرد مثالي من الممكن أن يكون على حد سواء متكلاً أم مستمعاً⁽¹⁵⁾.

على الرغم من جهود تشومسكي الحثيثة التي بذلها في فكّ العزلة التي سببتها البنيوية عن الدرس اللساني باختراعه ثنائية القدرة والأداء، مع جعلهما ركيزة لتحليل النصوص، إلا أنه لم يستطع تجاوز الكفاية اللسانية إلى الكفاية التخاطبية، لاستغراقه في الاحتمالات التي جعلها أساساً لقواعد التوليد الذي مال به نحو التجريد، فلم يستطع تجاوز تحليل الجمل والعبارات إلى تحليل الخطاب.

لقد حاول تشومسكي الإمساك بالمعنى بشتى الطرق حتى وقع في التجريد، واتهمه نقاده بالاستغراق في الجانب العقلاني، رغم أن المقصود من نظرية النحو الوظيفي كان الممارسات اللسانية التي هي قواعد التواصل، فليس من الصدف السعيدة إذاً استخدام هذه الخاصية اللسانية لتلك القواعد المخصصة، التي لا يمكن أن تفهم إلا إذا اعتبرناها قواعد تحقق الغرض المقصود بالذات⁽¹⁶⁾.

– أندري مارتيني "A. Martinet" ومفهوم الوظيفة:

يحصّر أندري مارتيني الوظيفة الجوهرية للغة في التواصل، لذلك رأى أصحاب الاتجاه الوظيفي أن "الوظيفة" هي المبرر الأساسي لتنظيم اللغة؛ لأنها السبيل الوحيد لكشف المعنى، ودراسة اللغة عندهم تكمن في البحث عن الوظائف les fonctions التي تؤديها في المجتمع أثناء تواصل أفرادها⁽¹⁷⁾؛ أي البحث عن الوحدات التي تغيّر المعنى من خلال التقطيع المزدوج الذي يعد قطب الرّحى في الوظيفية، ويقصد بها تمفصل اللغة إلى مستويات، بدءاً بالوحدات ذات الصورة الصوتية والدلالية، والوحدات المتوالية للصورة الصوتية، ثم التّمفصل المزدوج والاقتصاد اللغوي، الذي يؤكّد فيه على أن النظام الذي تم عرضه – التّمفصل المزدوج – يوجد في كلّ الألسن التي تم وصفها إلى اليوم، ويظهر أن هذا النظام قد فرض نفسه على المجموعات البشرية بصفته الأنسب إلى حاجات الإنسان وإمكانياته، لا شيء غير الاقتصاد -الناجم عن التّمفصل المزدوج- يمكن من الحصول على

(15) – سيلفان أور و آخرون: فلسفة اللغة، ترجمة: بسام بركة، مراجعة: ميشال زكريا، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 1، 1012 م، ص 454.

(16) – ينظر: تيزفيتان تودوروف وآخرون: المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، ترجمة: عبد القادر قيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 2000 م، ص 82.

(17) – شفيقة العلوي: محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 2004م، ص 16.

أداة للتبليغ، أداة ذات استعمال عام وقادرة على إيصال معلومات بمقدار مهول وبجهد زهيد⁽¹⁸⁾. يظهر المستوى الأول اتفاقاً معيناً على الوحدات الصوتية والدلالية، ويحدّد المستوى الثاني العلاقة بين الدال والمدلول، أما المستوى الثالث فيمثّل النظام اللغوي العام الذي يظهر القدرة على استعمال اللغة وتوصيل المعلومات على أدق وجه، وهذه التفضيلات مجتمعة هي دليل الوظيفة التي تظهرها اللغة، وهذا ما يسمح لمستعملها بالدخول في علاقات شراكة فيما بينهم.

ـ فيرث "J.R. Firth" والسياق:

يعد فيرث من أبرز المهتمين بالظروف والملابسات التي ينجز فيها الخطاب، فقد صب جل اهتمامه على الدورة الكلامية بين أفراد الجماعة في ظلّ الأحوال والمحيط الاجتماعي والثقافي، وكذا العاطفي، لذا تعرف نظريته بالنظرية السياقية (La Théorie de contexte)، التي يؤكّد فيها الدور الإنجازي للغة بعدّ الكلام فعل يتطلب ردة فعل، ومن هنا أصبحت الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل؛ لأنّ «اللغة باستعمالاتها البدائية حلقة اتصال في نشاط بشري جماعي ... إنها نمط من العمل وليست أداة للتأمل»⁽¹⁹⁾. يتضح لنا أن أساس المعنى عند أصحاب النظرية لا يتحدّد إلا بوضع الوحدة اللغوية ضمن سياقات متعدّدة، كالآتي:

ـ السياق اللغوي Linguistic context

ـ السياق العاطفي Emotional context

ـ السياق الثقافي Cultural context⁽²⁰⁾.

لا يتحقق التواصل إلا في سياق contexte ينجز فيه الفعل ويحدّد المعنى والقصد؛ إذ يؤدّي غيابه إلى قصور الفهم أو انعدامه، فمثلاً عند وقوع لبس في معنى معجمي لكلمة ما، فإنه يعوّل على السياق في تحديد دلالتها، وتفسيرها تفسيراً صحيحاً، «فهو بمثابة العنصر الفاعل في توضيح الكلام، بل في صحّته والوصول به إلى درجة القبول في معناه ومبناه»⁽²¹⁾.

لقد تفتّن فيرث لوظيفة اللغة الاجتماعية بإدخاله عنصر السياق الذي ربط فيه اللغة بالعالم، والإنسان بواقعه، وهذا ما أوجب عليه النظر لمفهوم السياق نظرة شمولية، فالوحدات اللغوية الوظيفية يحدّدها السياق الثقافي الذي يحيط بالأفراد، وهو سياق ينتج المجتمع للتعرف والتواصل المحكوم بدرجة الانفعال العاطفي التي تحدّد بدورها درجة التفاعل المتراوح بين القوّة والضعف، وبين العمق والسطحية، وبين التفاهم والتصالح، أو التنازع والتخاصم.

ـ جاكبسون "R. Jakobson" وخطاطة التواصل:

تعد خطاطة جاكبسون التواصلية البداية الفعلية للتفاعل التواصلية بين منتج الخطاب ومستقبله؛ إذ اهتم فيها بستة عناصر تخاطبية (مرسل، ومتلق، ورسالة، وقناة، وشيفرة، ومرجع)، تنتج عنها ست وظائف

(18) _ ينظر: أندري مارتيني: مبادئ اللسانيات العامة، ترجمة: سعدي زير، دار الآفاق، الجزائر، ص 28.

(19) _ جفري سامسون: مدارس اللسانيات، التسابق والتطور، ترجمة: محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، 1997م، ص 38.

(20) _ عبد القادر عبد الجليل: علم اللسانيات الحديث، دار صفاء للنشر والتوزيع، الأردن، 2002م، ص 541.

(21) _ كمال بشر: التفكير اللغوي بين الجديد والقديم، دار غريب، القاهرة، مصر، ط 1، 2005م، ص 35.

تواصلية (وظيفة مرجعية، ووظيفة تعبيرية، ووظيفة تأثيرية، ووظيفة انتباهية، ووظيفة تفسيرية، ووظيفة شعرية)، وقد جعل الوظيفة الشعرية أهم الوظائف، واللافت للانتباه أن كل من تحدث عن التواصل بعده كانت انطلاقته من هذه الخطاطة بإضافة عناصر جديدة أو بتقديم نقد لبناء فكرة مغايرة.

يرى جاكبسون أن المهمة الطبيعية للسانيات هي إثارة الأهمية الأساسية لمفهوم التواصل في العلوم الاجتماعية، فحسب صياغة ساير كل سلوك اجتماعي يتضمن تواصلًا، سواء كان بمعنى صريح أم ضمني، فالمجتمع لا يبدو بوصفه بنية ثابتة؛ بل بوصفه شبكة بالغة التعقيد من أنواع الفهم الجزئية الكاملة بين أعضاء الوحدات التنظيمية ذات التعقيد، ويعاد التأكيد والتشديد على هذه الشبكة بصورة خلاقة عن طريق أفعال معينة ذات أبعاد تواصلية⁽²²⁾.

حاول جاكبسون إدماج التواصل في السلوك الاجتماعي، فكل فعل لساني غايته تعديل السلوك، ومنه ابتكر ترسيمته تواصلية أفاد بها كثيرا مناهج تحليل الخطاب، فقد لخصت دورة التواصل الإنساني ووظائف اللغة المنجزة في السياق، والمنتجة لعناصر تواصلية تابعة لمآل الفعل التلفظي والمتشكلة من اتحادها وقت التخاطب⁽²³⁾، وبالنظر إلى العناصر الترسيمية تنتج الوظائف كالآتي:

المرسل Destinateur	←	الوظيفة التعبيرية
المرسل إليه Destinataire	←	الوظيفة التأثيرية
الرسالة message	←	الوظيفة الشعرية
النظام Système	←	الوظيفة الميتالسانية
السياق Contexte	←	الوظيفة المرجعية
القناة Canal	←	الوظيفة التنبيهية

يقف جاكبسون على رأس المساهمين في التأسيس لمذهب وظيفي في ترسيمته التواصلية معلنا عن الوظيفة التواصلية للغة، التي يدخل تحتها مجموعة من الوظائف الفرعية، وعلى الرغم من استحضاره الذات المتكلمة في الخطاطة، إلا أنه لم يُوكل لها أي مهمة غير الترميز الذي هو عمل اللسان، فكان النظام الترميزي مستخدما في سياق تواصل أحادي الأطراف، دون السماح للمتجاوزين التصرف فيه⁽²⁴⁾، وعلى الرغم من محاولته تقنين التواصل الإنساني في الوظائف الست التي ابتدعها، والتي لا تخلو من البعد الاجتماعي المنحصر في الاتفاق الوضعي والتوجيه الفردي الذي يمثل الاستعمال الفعلي للخطاب، إلا أن الاعتراض كان على السنن المخصص لنقل المعلومة والذي حصر عمله في التنبيه، في حين تبدو المسألة أكثر تعقيدا؛ لأن هناك عناصر غائبة لا يمكن

(22) _ ينظر: رومان جاكبسون: الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة: علي حاكم صالح، حسن ناظم، المركز الثقافي العربي،

المغرب، ط 1، 2002، ص 59، 60.

(23) _ ينظر: رومان جاكبسون: قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الوالي، مبارك حنون، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط 1،

1988 م، ص 23، 33.

(24) _ Searle: Sens et expression, étude de théorie des actes de langage, traduction française de Joëlle Proust, Minuit, 1982, P: 23

أن تظهر بالبساطة والوضوح الذين تحدّث عنهما، حيث قام بصهر الدوال والمدلولات والقواعد التنظيمية والأسيقة والمنتج والمؤؤل في نسق موحد هو نموذج لأنواع التواصل، وهذا بالضبط ما عابه عليه علماء التواصل من محللي الخطاب، واللسانيين، وعلماء الاجتماع، وعلماء النفس، وعلماء الرياضيات الذين بحثوا في مشكلة التواصل الإنساني ورأوا ضرورة تعقيد السنن لتجاوز العجز الذي تسجله اللغة، متفقين على أن عالم التخاطب يرتكز على دلائل لسانية وأخرى ميتالسانية خاضعة لتسنين شبه منظم ومعد في الوقت نفسه.

ـ بورديو "Bourdieu" والازدواجية السننية للتفاعل التواصلية:

يؤكد بورديو أثناء دراسته للسلوك الحواري على الازدواجية السننية للفاعلية التخاطبية، التي تستدعي حل السنن ثم عقده من طرف المتلقي تبادلا للأدوار، فعلى عكس أطروحة جاكبسون الأحادية السنن، التي تحاول اكتشاف مفردات موحدة بين منتج الخطاب ومستقبله غاية في التفاهم أو التملص، أقر بورديو بضرورة الحوار، رافضا نظرة جاكبسون التي تحمل حسبه دورا إيديولوجيا، «إنه يهدف وضع قناع بهذا المظهر المرح بانسجام خيالي على وجود توترات مواجهات وجور حقيقي، إنكار وجود هاته التوترات والتعلل بأوهام الأحادية اللسانية CommunismeLinguistique هو في الواقع توسل بواسطة ورقة اللغة لاختلالات اجتماعية»⁽²⁵⁾.

يرى بورديو أن دال الإرسالية يحمل مدلولاً مبدئياً وهو المعتمد عليه في عقد السنن، ومدلولاً آخر جديد وهو المعول عليه في حل السنن، وبين حل السنن وعقده تظهر لنا دلالات جديدة تقوم بتفعيل النشاط اللغوي الفردي وتنشيط عملية التأويل أثناء البث والاستقبال، وهنا تظهر القيود الممارسة على الباحث من قبل المتلقين وقت التواصل، بالتزامه آليات خطابية تعزز العملية التفاعلية في سياقها العام الذي أنجز فيه الفعل، وعن طريق التأويل تتحدّد المضامين الحوارية.

ـ ديل هايمس "d. hymes" وانتوغر افيا التواصل:

انطلق هايمس انطلاقاً سوسiolسانية، فلم يهتم بنظام أو نسق اللغة كيفما كانت؛ بل بجماعة من المتكلمين يشترك أعضاؤها في المصادر اللغوية، والقواعد التواصلية لملاحظة الكيفية التي يستخدمون بها تلك المصادر، وغيرها من المصادر غير اللفظية حسب السياق، علماً بأن قائمة التطبيقات التواصلية للمجموعة قد تحتوي على عدّة لهجات ولغات، وعدّة عناصر من السلوك غير اللفظي⁽²⁶⁾.

صب هايمس جل تركيزه على علاقة المنطوق بالسياقات السوسيوثقافية والسياقات الحالية، لذلك فإن الكفاية التواصلية في نظره تشمل «كفاية لسانية» أي معرفة بالقواعد النحوية و«كفاية بيسيوسوسيوثقافية»، أي معرفة قواعد الاستخدام والقدرة على استخدامها⁽²⁷⁾.

يرى هايمس أن أول شرط لتحقيق الكفاية التواصلية هو القدرة على دمج المعرفة اللسانية (مختلف القواعد النحوية للغة التخاطبية) بالمعرفة السوسiolسانية (طرق استعمال اللغة ضمن المنظومة

(25) محمد نظيف: الحوار وخصائص التفاعل التواصلية، دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، أفريقيا الشرق، المغرب، 2010م، ص 25، 26.

(26) ينظر: الحسين زاهدي: التواصل نحو مقارنة تكاملية للشفوي، أفريقيا الشرق، المغرب، 2011م، ص 26.

(27) sophie moirand : Enseigner à communiquer en langue étrangère Hachette, Paris, 1982, p15. 16.

الثقافية)، وبهذه الطريقة يمكن للفرد تحقيق فعل التواصل داخل الجماعة؛ بل إن فعل التواصل هو الذي يحكم العلاقات الاجتماعية.

ـ كنالي وسواين "canale&swain" وقدرات التواصل:

استفاد كنالي وسواين من نموذج ديل هايمس مع إضافة عنصر جديد للكفاية اللسانية، محددتين ثلاث قدرات تواصلية متداخلة فيما بينها:

أ. القدرة النحوية Grammatical Compétence: تضم المعرفة بقواعد التركيب والصرف والصوت والدلالة، وكل ما يخص نحو الجملة في اللغة المستعملة للتخاطب.

ب. القدرة السوسيولسانية Sociolinguistique Compétence: وتشمل:

القواعد السوسيوثقافية: تعني الإلمام بالسياقات الاجتماعية والثقافة التي يجري فيها الخطاب، وهنا يتحدد المعنى وفقا للعرف، وكذا المكان والزمان بحسب طبيعة الحوار.

قواعد الخطاب المقامية: يقصد بها القواعد التي تضمن للخطاب تماسك جملة، وانسجامها، واتساقها فيما بينها حتى يتشكل المعنى الكلي للخطاب.

القدرة الاستراتيجية Stratégique Compétence: هي استراتيجيات التواصل اللغوية كاستعمال الوصف، وأدوات التوكيد، وأساليب البلاغة من تشبيه، واستعارة، ومجاز... وغير اللغوية كتوظيف حركات الجسد التي يتكئ عليها منتج الخطاب أثناء تواصله مع المتلقي حتى لا تعرقل العملية التواصلية، ويحقق الخطاب نجاعته⁽²⁸⁾.

مما سبق ذكره يتعين على المتكلم التمكن من الإلمام بهته القدرات تجاوزا لعثرات التواصل، مع العلم أن القدرات متفاوتة فيما بينها، وكذا متفاوتة من شخص لآخر بحسب القدرة على الإقناع والاحتجاج للموقف أو للفكرة، ومن هنا تأتي فكرة إثبات القدرة على التواصل.

ـ غوتلوب فريجه G.Frege والعودة للغة:

يرى الباحثون أن للمدرسة التحليلية بزعامة غوتلوب فريجه G.Frege دورها في تكريس فكرة التواصلية في اللغة، حيث اهتمت باللغة وكيفية توضيحها، فمن أهم ما أنكرته الفلسفة التحليلية على الفكر الفلسفي القديم أنه لم يلتفت إلى اللغات الطبيعية، ولم يولها ما تستحقه من الدراسة والبحث، فسعت إلى ردم هذه الهوة... باتخاذ اللغة موضوعا للدراس، باعتبارها الأوليات في أي مشروع فلسفي⁽²⁹⁾.

ـ لودفيغ فيتجنشتاين "L.Wettgenstein" واللغة العادية الطبيعية:

تأثر الفيلسوف لودفيغ فيتجنشتاين L.Wettgenstein «بالفلسفة التحليلية وحاول إسقاطها على اللغة، فأسس بذلك مفهوما جديدا سمّاه اللغة العادية، وقوامها الحديث عن طبيعة اللغة وطبيعة المعنى في كلام الرجل

(28) _ محمد اسماعيلي علوي: التواصل الإنساني، دراسة لسانية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2012م، ص15، 16، بتصرف.

(29) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005م، ص 20.

(الإنسان) العادي»⁽³⁰⁾، ومن ثم رأى أن المشكلات الفلسفية نشأت نتيجة سوء استخدام الفلاسفة للغة العادية أو تجاهلها، فقد استخدموا الكلمات بمعان بعيدة كل البعد عن الاستخدام المألوف، فخلقوا لأنفسهم مشكلات مثل التشكك في وجود العالم، أو كيف عرفت أن هنالك بشرا غيري لهم مثلي عقول ومشاعر وحالات نفسية وعملية عقلية ونحو ذلك. وعلاج ذلك هو عودة الفلاسفة إلى اللغة العادية، والاستخدام المألوف للكلمات⁽³¹⁾.

وقد تفتن فتجنشتاين إلى أن اللغة تأخذ أشكالا مختلفة، فقد نعبر عن أغراضنا بطرق متعددة، فالكلمة والجملة تكتسب معناها من خلال استخدامها، والمعنى عنده هو الاستعمال؛ أي أن اللغة لا معنى لها من دون توظيفها واستعمالها استعمالا صحيحا، لذا ابتعد عن التحليلات المنطقية المتعسّفة في دراسة اللغة، واهتم بها في إطار التواصل.

ـ أوستين J.R.Austin والفعل الإنجازي الوظيفي:

نقف على فكرة التواصل اللساني لدى أوستين في نظرية أفعال الكلام العامة، وهي أشهر نظرية في الفلسفة المعاصرة، والتي ظهرت إلى الوجود عندما أخذ على عاتقه مهمة الرد على فلاسفة اللغة العادية المنطقية في محاضراته التي ألقاها في أكسفورد وهارفارد، والتي جمعها "إرمسون" J.O.Urmson تحت عنوان: with words, How to do things، "كيف نصنع الأشياء بالكلمات"، وفيه أضاف أوستين فكرة جديدة للغة تتمثل في خاصية ربط اللغة بالعالم عبر أفعالها الإنجازية، وسمى نظريته؛ "نظرية أفعال الكلام" La Théorie des act de langage، والتي ميّز فيها بين ثلاثة أنواع من الأفعال اللغوية هي: فعل العمل القولي acte locutoire، الذي يتحقق بإطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات دلالة، وفعل العمل المتضمن في القول acte illocutoire، والذي ينجز بقول شيء ما، وفعل عمل التأثير بالقول acte perlocutoir، وهو العمل الذي يتحقق نتيجة الأثر الذي يتركه قول شيء ما⁽³²⁾، وهذه الأفعال ينجزها المتكلم ليؤدي بها أغراضا، فهو عمل يطمح من خلاله إلى إحداث تغيير معين في سلوك المخاطب بالفعل أو بالكلام.

تكمّن أهمية مشروع أوستين في رفضه ثنائية الصدق والكذب، وإقراره بأن كل قول Enoncé عبارة عن عمل⁽³³⁾، واستنادا إليه ميّز بين نوعين من العبارات، فالأولى تخبر عن وقائع العالم الخارجي، ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، والثانية تنجز أفعالا، فهي لا تحتل صدقا أو كذبا؛ أي أنه كشف لنا عن التعارض الكائن بين نوعين من المنطوقات: المنطوقات التقريرية، والمنطوقات الأدائية⁽³⁴⁾.

هذا يعني أن اللغة لا تقتصر فقط على وصف الوقائع، بل تتعدى ذلك إلى الاستعمال، بمعنى هناك عبارات بمجرد النطق بها نقوم بأعمال ووظائف لغوية، فهي أفعال لا تصف الوقائع، ويحكم عليها بمعيّار ثان هو النجاح والتوفيق أو الإخفاق، فتكون بذلك موفقة أو غير موفقة، ويسمى أوستين هذه الأفعال إنشائية، فيدخل فيها

(30)ـ مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 20.

(31)ـ محمود فهمي زيدان : في فلسفة اللغة، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1985 م، ص 53.

(32)ـ ينظر: آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دفعوس ومحمد الشيباني،

مراجعة لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة، بيروت، ط200، 1، م، ص 31، 32.

(33)ـ الجليلي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص22.

(34)ـ صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص 137.

التسمية، والوصية، والاعتذار، والرهان، والنصح، والوعد...، وإن التلطف بهذه المنطوقات الأدائية:

- لا يصف شيئا، أولا يخبر بشيء، أي لا يثبت أمرا أو ينفيه، ومن ثم لا يصدق أو يكذب.

هذا النوع من المنطوقات قد يكون النطق به إنشاء لفعل أو إنجازا له مثل قولنا: نعم قبلت زواجها، جوابا للمأذون الذي يقوم بعقد الزواج قائلا: هل قبلت زواجها؟ فالنطق بهذه الجملة في الموقف لا يصف حاله حين النطق بها، ولا يذيع خبرا؛ بل يحدث فعلا أو ينشئ واقعا⁽³⁵⁾. ووفقا لذلك افترض أوستين في فعل الكلام تداوله بين أشخاص يؤمنون بأشخاص آخرين يقع على عاتقهم جميعا مهمة إنجاز أفعال ذات صبغة تواصلية ينجر عنها تغيير في السلوكات، فأفعال الكلام وظائف اجتماعية تسهم في بناء العالم وتجديده.

تعد مساهمة أوستين واحدة من المساهمات الساعية إلى توضيح الاستخدام، والتي تلقي الضوء على فكرة القيام بفعل ما بالنظر إلى:

أ_ التواصل في سياق خاص: وقعت عين أوستين على العبارات الإنشائية ذات الصيغة الإنجازية لما لها من علاقة مع التواصل الفعلي باللغة عن طريق القيام بأفعال تنجز بسلوكات عملية، مقرا أن الحكم على العبارة بالصدق أو الكذب هو خبر يمثل الأشياء في الواقع ويصفها بعبارات تشكل جزءا صغيرا جدا من الاستعمالات اليومية للغة، في حين تأخذ العبارات الأدائية المجسدة في أفعال كلامية حصاة الأسد من تلك الاستعمالات، والتي تحقق أغراضا إنجازية قابلة للتنفيذ كالطلب، والأمر والوعد، والنصح...، غرضها التأثير في المتلقي بإحداث ردة فعل من مثل الاستجابة، الانفعال، الرفض...، الأمر الذي يربط الإنشاء بسياق الاستعمال المسؤول عن جعل التلطف يرتبط بالسياق الذي ورد فيه، لتصبح الدلالة نتاج للعلاقة التفاعلية بين الذات، فكل فعل كلام يحكمه سياق وروده؛ حيث لا مجال لفهمه في إطاره اللغوي البحث أو المعين، يقول: «قد اتضح أن الحاجة إلى المطابقة أو إلى ربط علاقة ما بالأحداث الواقعية قد تحدد أو تميز العبارات الإنشائية، بالإضافة إلى الحاجة المطابقة لمقتضى الحال، كما قد تميز وبنفس الطريقة العبارات الخبرية»⁽³⁶⁾.

ترتبط الدلالة عند أوستين بالاستعمال العادي للغة، المحكوم بسياقات خطابية معينة تحددها المقاصد والأغراض وقت توظيفها اجتماعيا، ليأخذ الكلام معناه العام باستعماله في سياق خاص، حيث تنسجم العبارة مع ظروف وملابسات التلطف بها.

ب_ إنجاز الفعل قصدي تواصلية: أكد أوستين ضرورة النظر إلى السياق الذي تتشكل فيه الدلالة والمعنى معا، ذلك أن ظروف وملابسات التلطف تساعد على خلق مقام تواصل لا يستند إلى تصديق الكلام أو تكذيبه بقدر ما يستند إلى الحثيات التي تساهم في تحديد الغرض منه، فالنظر إلى السياق هو نظر للغة في التواصل، وهو الأمر الذي يمكن من معرفة مقاصد المتكلمين وأغراضهم؛ ذلك أن «مسألة الأغراض والمقاصد في التلطف بالعبارة وما يحتف بها من سياق قرائن الأحوال هي مسألة لها خطرها وشأنها. وما نقضي ونحكم به على

(35) - علي محمود حجي الصراف: في البراجماتية، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية معجم سياقي، مكتبة الآداب، القاهرة، 2010 م، ص 29.

(36) _ أوستين: نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، 1991م، ص 110.

أنه صادق في كتاب مدرسي لا يجوز أن نثبتته في بحث تاريخي»⁽³⁷⁾.

يلح أوستين على مسألة القصد في الكلام الذي يتحدد في الذهن، ويتجسد في اللغة، ويحتكم فيه للسياق، فشرط المناسبة ومراعاة الأحوال حاضر بقوة في معرفة القصد الذي يناسب ظروفًا ولا يناسب أخرى، لهذا السبب اشترط في العبارات المتلفظ بها عنصر القصدية الذي يلائم غرضًا معينًا لا جميع الأغراض، فالرجوع إلى القصد وحده كفيل بتحديد المعنى واقتناصه من بين معاني كثيرة، ولا يتأتى له ذلك إن غابت ظروف مقتضى الحال، فما يتلفظ به القائل يأتي تبعًا لغرض معين مع قصد ونية.

ـ جون سيرل J.L.Searle وقصدية التواصل:

استأنف جون سيرل نظرية أستاذه أوستين ليشمل التواصل اللغوي الفعل الكلامي؛ فمن أجل التأسيس لهذا النوع من التواصل رأى أن الفعل الإنجازي هو وحدة الاتصال الإنساني باللغة، وهو اللبنة الأولى لبناء المعنى؛ وبناء عليه أضاف "بعدين أساسيين من أبعاد اللغة أهملهما أستاذه هما: المقاصد والمواضعات"⁽³⁸⁾، ويظهر ذلك من خلال:

ـ تضمين سياق التواصل البعد القصدي: طوّر سيرل مفهوم الفعل الكلامي في "نظرية المواضعة"، انطلاقًا من تعزيز الفرضية الإنجازية لأستاذه، مفرقًا بين المعنى الصريح والمعنى الضمني، حيث أعاد بناء النظرية بوضع تصوّر جديد للمعنى القصدي المرتبط بنية التواصل ذات البعد الجمعي، فبدأ بالتشكيك أولًا في المعنى الحرفي le sens littéral، الذي يعدّه أمرًا مرفوضًا، وعلّة ذلك وجود قدرة على تأويل الملفوظات بالنظر إلى افتراضاتنا السياقية التي تشدّد الملفوظ بالمعنى المناسب، وهو تمام المقصود من المعنى السياقي؛ إذ المعنى الحرفي موجود في السياق الصفر، أو الدرجة الصفر، وكلّ ما نحتاج إليه هو إعادة بناء الواقع الاجتماعي، بتضمين البعد القصدي سياقه المناسب، ومن هنا يقترح أفعال اللغة غير المباشرة⁽³⁹⁾؛ حيث عمل على التمييز بين الأفعال الإنجازية المباشرة، والأفعال الإنجازية غير المباشرة.

والأفعال الإنجازية المباشرة عنده هي التي تطابق قوّتها الإنجازية مراد المتكلم، بمعنى مطابقة القول للقصد، ويفترض في الفعل الإنجازي المباشر أن لا يكون بحاجة إلى تبين أيّ معنى إضافي، فهو يعنى حرفيًا ما يقول، فإذا وجدنا توافقًا بين التركيب والوظيفة التواصلية في كلّ جملة (خبر، استفهام، أمر...) فإنّنا نكون أمام أفعال إنجازية غير المباشرة تخالف قوّتها الإنجازية مراد المتكلم؛ لأن دلالتها الإنجازية قد تلغى⁽⁴⁰⁾، فالمتكلم يحاول إيصال قصده بطريقة غير مباشرة معتمدًا في ذلك على قدرة المخاطب الاستنتاجية، والتي تتاح له عن طريق الأعراف ومختلف وسائل الحوار الموجودة في ذهنه مسبقًا.

وما تجدر الإشارة إليه أنّ هذه الأفعال يتمّ إنجازها في المجتمع؛ أي في المحيط الخارجي بعيدًا عن اللغة؛ إلّا أنّها تبقى معدومة من دونها؛ لأنّ المقام اللغوي يأتي أولًا، ليتّم في الأخير تجسيده في المنظومة الاجتماعية، فمثلا في

(37) _ أوستين: نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ص 164.

(38) _ (sophiemoirand : Enseigner à communiquer en langue étrangère Hachette, Paris, 1982, p15. 16.

(39) _ ينظر: ماري آن بافو، جورج إليا سرفاتي: النظريات اللسانية الكبرى، من النحو المقارن إلى الذرائعية، ترجمة: محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2012 م، ص 363، 364.

(40) _ علي محمود حجي الصراف: في البراجماتية، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية معجم سياقي، ص 98.

عقد البيع والشراء يتمّ الاتفاق بين الأطراف عن طريق الملكة اللغوية، وهي ركن أساسي في العملية، «وهذا ما يؤكد حاجة المجتمع دائماً إلى اللغة، كما أنّ اللغة بحاجة إلى مجتمع لتقوم بوظائفها»⁽⁴¹⁾.

ـ بول غرايس H.P. Grice ونظرية المحادثة:

أضاف غرايس معنيين جديدين لمجال التواصل اللغوي هما: "الاستلزام الحواري، ومبدأ التعاون"، موضحاً أن المعنى يتضمن بعدين؛ الأول مباشر (حرفي)، والآخر مستلزم من المعنى الأول.

ـ الاستلزام الحواري: يعود البحث في هذا المجال للفيلسوف غرايس في محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفرد سنة 1967، وقد كانت نقطة البدء عنده أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر ممّا يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل كلّ همة إيضاح الاختلاف بين ما يقال؛ أي الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية؛ أي ما يريد المتكلّم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر اعتماداً على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال⁽⁴²⁾.

ويمكن توضيح ذلك بحوار الأستاذين (أ) و(ب):

- الأستاذ (أ): هل الطالب (ج) مستعدّ لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة؟

- الأستاذ (ب): إن الطالب (ج) لاعب كرة ممتاز.

لاحظ الفيلسوف غرايس أنّنا إذا تأملنا الحمولة الدلالية لإجابة الأستاذ (ب) وجدناها تدلّ على معنيين اثنين في نفس الوقت، أحدهما حرفي والآخر مستلزم؛ معناها الحرفي أنّ الطالب (ج) من لاعبي الكرة الممتازين، ومعناها الاستلزامي أنّ الطالب المذكور ليس مستعدّاً لمتابعة دراسته⁽⁴³⁾؛ ومنه أدخل مبدأً جديداً هو مبدأ التعاون التخاطبي.

ـ مبدأ التعاون التخاطبي: ظهر هذا المبدأ في اللسانيات الحديثة مع بول غرايس بظهور كتابه الشهير "محاضرات في التخاطب"، ثم طوّره في مقالته الشهيرة "المنطق والتخاطب".

يقترح غرايس لهذا المبدأ أربع قواعد متفرّعة منه، وجب على المتخاطبين استغلالها واحترامها:

قاعدة الكم: حيث يساهم المتكلم فيها بالقدر الكافي من المعلومات؛ أي ما يعادل ما هو ضروري في المقام ولا يزيد عليه.

قاعدة النوع: ويفترض فيها نزاهة القائل واتصافه بالصدق، فيكون كلامه مدعماً بالحجج الكافية.

قاعدة العلاقة (المناسبة): والتي تفترض أن يكون الحديث له علاقة بالموضوع.

قاعدة الكيف (الطريقة أو الهيئة): والتي تجعل المساهمة في الحديث مناسبة للمقام، فيعبّر المخاطب بوضوح وبلا لبس، وتقدّم المعلومات بترتيب مفهوم⁽⁴⁴⁾.

اهتمّ غرايس في مبدأ التعاون بقدرة المتخاطبين على توصيل مقاصدهم عن طريق استغلال هذه القواعد،

(41) ـ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، دار الكتاب

الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004 م، ص 78.

(42) ينظر: محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر، دار المعرفة المصرية، مصر، 2006 م، ص 32.

(43) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 33.

(44) ينظر: المرجع نفسه، ص 55 - 56.

فمتى تحققت تحقق التواصل؛ إذ يفترض «أن المتخاطبين المساهمين في محادثة مشتركة يحترمون مبدأ التعاون، فالمشاركون يتوقعون أن يساهم كل واحد منهم في المحادثة بكيفية عقلانية، ومتعاونة لتسيير تأويل أقواله»⁽⁴⁵⁾.

ينهض مبدأ التعاون الحوارى لتحقيق الفائدة التواصلية للغة؛ حيث يوكل لفعل الكلام مهمة إظهارها بالمستوى التعاونى التهذيبى الذى يدور فى فلك التعامل والأخلاق، بالبحث فى العلاقة التخاطبية بين المتكلم والمخاطب بمعاينة مختلف الاستعمالات اللغوية فى ارتباطها بمقام الكلام.

. جيليان براون وجورج يول Gillian Brown et George Yol بين الوظيفة التفاعلية والوظيفة

التفاعلية:

بدأ معنى التواصل يأخذ منحى جديدا بظهور مفهوم الوظيفة التى أصبحت تعادل معنى الاستعمال فى التيار التداولي المعاصر، فالانفتاح على الأنساق المعرفية العامة كاللسانيات، والفلسفة، والرياضيات، والمنطق، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والذكاء الاصطناعي...، كان دافعا قويا فى إخراج اللغة من قوقعة الانطواء التى تسبب فيها المد البنيوي، ليصبح التركيز منصبا على العناصر الحيوية للتواصل باللغة، كأغراض ومقاصد ومرامي المتكلمين من جهة، وعلى مراقبة سياق الحال الذى يأخذ فى الاعتبار كل ما هو خارج لسانى من جهة أخرى.

هذه الوظيفة التداولية التواصلية تنظر للتواصل من زاويتين؛ زاوية المعاملات القائمة على اللغة، وزاوية المواقف الاجتماعية التى تتغير بفعل اللغة، وهو التصنيف الجديد والمقنع لوظائف اللغة فى الخطاب، والذى روج له كل من باتريك شارودو P. Charaudeau ودومينيك مانغونو D. Maingueneau فى "قاموس تحليل الخطاب"، بنقله عن ج. ب. براون و ج. يول فى كتابهما المشترك "تحليل الخطاب"⁽⁴⁶⁾، وهاتانوظيفتان هما:

الوظيفة التفاعلية؛ التى تركز على نقل المعلومات، وأهم دليل على هذا الجانب من اللغة «أن قدرا كبير من المعاملات اليومية بين الناس إنما يقوم على اللغة، بوصفها بالدرجة الأولى أداة اتصال بين الأفراد أكثر من قيامه على اللغة بوصفها أداة تعامل»⁽⁴⁷⁾.

والوظيفة التفاعلية؛ التى تعمل على إنشاء العلاقات الاجتماعية وتثبيتها⁽⁴⁸⁾.

نظر براون ويول إلى اللغة من زاوية عملها فى المجتمع، ومن زاوية العلاقات التى تربط مستعملها بتعزيز عمل الأفعال اللغوية فى الواقع، وما ينجز عنه من صناعة أفعال قد تثبت علاقة أو تغير رأيا أو تعطي حلا، أو تنجز هذا جميعا فى مواقف اجتماعية معينة، فلم تعد دراسة اللغة بعدها قوالب جاهزة وصيغ وتراكيب بمعزل عن مقامات إنجازاتها ذات جدوى إن لم يلتفت إلى عملها فى توجيه مسار الخطاب، وتحديد وظائفه المتنوعة كالأمر، والنهي، والنداء، والاستفهام، والتمني، والقسم، والترجي، والوصف، والتقرير، وغيرها من الوظائف التى يعادل إنجازها تحصيل غاية الخطاب ومراميه، فالتعبير عن الذات، ونقل المعلومات، والتأثير فى الرأي أو تغييره،

(45) _ محمد العبد: تعديل القوة الإنجازية، مجلة فصول، عدد 65، 2004م، ص 137.

(46) _ ينظر: ج. ب. براون، ج. يول: تحليل الخطاب، ترجمة: محمد لطفي الزليطي، منير التريكي، النشر العلمي والمطابع، جامعة

الملك سعود، المملكة العربية السعودية، (د.ط)، 1418هـ، 1997م، ص 03.

(47) _ ج. ب. براون، ج. يول: تحليل الخطاب، ص 03.

(48) _ P. Charaudeau et D. Maingueneau: D'analyse de discours, Edition du seuil, Paris, 2002, P: 265, 266.

والمحافظة على التماسك الاجتماعي....، جميعه من عمل اللغة؛ لكن ليس بمعزل عن السياق الاجتماعي العام.

ـ يورغن هابرماس "J. Habermas" نحو عقلانية تواصلية:

تعد مدرسة فرانكفورت من خلال مشروعها النقدي خلاصة إشكالية التواصل؛ إذ عمل الرعيل الأول من (بولوك وهوركهايمر إلى ماركوز)، ثم الرعيل الثاني بقيادة (هابرماس) منذ قرن ونيف على إرساء معالم نظرية نقدية في فلسفة التواصل قائمة على نقد العلم، والسياسة، والأخلاق، وقد أخذت معالم المدرسة تتضح وتتجذر «بسبب قدرتها على فهم الإشكاليات التي يتمحور حولها الفكر الغربي، وخاصة مفهوم الدولة، وذلك من خلال قراءة معمقة للتراث الأوروبي على غناه وتنوعه، وباستخدامها لأدوات منهجية، تحليلية، نقدية، تحرر الفرد من أغلال الأيديولوجيا والمؤسسات وكل ما يدعو إلى التخندق حول ما هو جاهز»⁽⁴⁹⁾.

وقد اتفق فلاسفة المدرسة على إخراج الفرد من تخلفه وانغلاقه بإدماجه في المجتمع عن طريق مشروع اجتماعي تغييري هادف إلى تبديل النظرة ذات البعد الواحد، والحقيقة أن هذه النظرية لم تكتمل ملامحها قبل جهود هابرماس، الذي بدأ يميل شيئاً فشيئاً إلى التفرد والتميز بأرائه الفلسفية التي نهلت من اللسانيات وعلم الاجتماع ونظريات الاتصال والإعلام، ما جعله رائد الفلسفة النقدية التواصلية المعاصرة من خلال أفكاره المتمركزة على:

أ. عقلنة الفاعلية التواصلية:

أوجز هابرماس مفهومًا للعقلانية ذكر فيه: «إن ما نسميه «عقلانية» هو أولاً الاستعداد الذي تبرهن عليه ذوات قادرة على الكلام والعمل، وعلى اكتساب وتطبيق معرفة قابلة للخطأ»⁽⁵⁰⁾.

نفهم من قول هابرماس أن العقلانية تسبق كل نشاط إنساني، فالاستعداد للاندماج، واكتساب خبرات، ثم تجربتها وتجسيدها اجتماعياً، جميعها أفعال عقلانية تؤكد على العقل باعتباره المنطلق الأساسي لأي نظرية في المجتمع؛ لذلك فلا سبيل عنده لتطور المجتمعات الحديثة دون إدخال البعد التواصلية في مفهوم العقلانية، الأمر الذي يساهم في خلق التفاعل بين الذوات.

رکز هابرماس في مشروعه الحضاري على العقل التواصلية معللاً ذلك بقوله: «إن هذا العقل يتجاوز العقلانية الغربية التي أعطت أولوية مطلقة للعقل الغائي، والتي تهدف إلى تحقيق مصالح وغايات معينة، فهذا العقل يبني على فعل خلاق يقوم على الاتفاق، وبعيدا عن الضغط والتعسف، وهدفه بلورة إجماع يعبر عن المساواة داخل فضاء عام ينتزع فيه الفرد جانبا من ذاتيته، ويدمجها في المجهود الجماعي الذي يقوم بالتفاهم والتواصل العقلي»⁽⁵¹⁾.

(49) _ عمر مهيل: إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ص 297.

(50) _ يورجين هابرماس: القول الفلسفي للحدث، ترجمة: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995م، ص 482.

(51) _ أبو النور حسن، أبو النور حمدي، يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل، إشراف: أحمد عبد الحليم عطية، المكتبة الفلسفية، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2012م، ص 137.

لقد وقف هابرماس عند المنعطف اللساني، فالعقل التواصل لا غنى له عن اللغة بعدها وسيلة التواصل الأولى وسبيل كل فاعلية اجتماعية، فالذات المتكلمة والفاعلة حاضرة في كل نشاط ما دامت قادرة على المشاركة، ومنه اشترط في التجربة التواصلية وقوع اتفاق بين المشاركين، هذا الاتفاق هو عمل ديمقراطي يعبر عن اندماج اجتماعي ينشد الحوار والمناقشة، ذلك أن الديمقراطية العادلة هي سبيل اندماج فئات المجتمع.

أراد هابرماس تأسيس مشروع حدائي يزاوج فيه بين "الفاعلية الديمقراطية" و"الفاعلية التواصلية" غاية في تحقيق "العدالة السياسية" انطلاقاً من "العدالة الاجتماعية" الكامنة في تجسيد الكرامة، وتوفير الأمن والاستقرار بتفعيل الحقوق المنظمة لبنية المجتمع وهي "الحقوق الاجتماعية"، التي تطورت واتسعت حتى تداخلت مع ما يعرف "بالحقوق المدنية"، التي تعني بدورها «الحريات المكرسة في بلداننا الديمقراطية ذات الثقافة الليبرالية مثل حرية التعبير، حرية الانتماء إلى جمعيات، حرية المؤسسة، حرية الحركة ذهاباً وإياباً، وهي تعني كما حددها "جون راولس" John Rawls في كتابه نظرية العدالة Théorie de la justice حرية الشخص، وحمايته من الضغوطات النفسية ومن الاعتداءات الجسدية، كما تعني حق الملكية الشخصية، وحق حمايته من التوقيف والاعتقال التعسفي»⁽⁵²⁾.

يريد هابرماس البحث عن حلّ عقلائي للتقنية التي أطبقت على العالم المعيش واستفردت به من جميع الجهات، فهو يقرّ بأننا نعيش عصر الرأسمالية المتقدمة القائمة على التقنية؛ بل إن شرعيتها أصبحت مستمدة منها. فلا سبيل إذن للهروب منها إلى جداريات الماضي وأطلاله، ولا مناص أيضاً من الاعتراف بأن التقنية تعمل بشكل مختلف عن الأديولوجيات التقليدية لتبرير شرعيتها⁽⁵³⁾.

من هنا ينبّه لخطورة التقنية على الفرد والمجتمع؛ لأنها تحت على العمل دون التفاعل الذي يلعب دور الرابط الاجتماعي الكفيل بالتواصل الإنساني، وإبعاده عن التشوّي والانكسار والاعتراّب، بتفعيل التبادلية والتحاورية في اللغة، فتداولها والعمل بها في الواقع الاجتماعي كفيل بخلق التفاهم، «ويخلص هابرماس إلى القول بأن الفلسفة التداولية Pragmatique والفلسفة التأويلية Herméneutique يقتربان من هذه المسألة المتعلقة بدور التأويل الذي تقوم به الفلسفة. وذلك لأن الممارسة التواصلية اليومية تسمح بخلق تفاهم بين الذات موجه من طرف مقتضيات الصلاحية Exigences de validité»⁽⁵⁴⁾.

أضاف هابرماس بعداً رئيساً للعقلانية هو البعد التواصلية مشروطاً من أجل عقلنة الفاعلية التواصلية بين أفراد المجتمع وجود فاعلين يطمحون إلى التفاهم بعيداً عن الفوضى والاضطراب؛ لذا دعا إلى فلسفة حديثة أسمّاها أخلاقيات التواصل ترتكز أساساً على ما أسماه بالتداوليات الكلية التي تتطلب وجود عمل إنجازي يكمل بتفاعل الذات المتبادلة للخطاب عن طريق الحوار وقرع الحجّة بالحجّة مع القدرة على الإقناع وتعليل ادعاء الصلاحية الذي يريد كل طرف إثباته لنفسه والمعترف به بين أفراد الجماعة في نشاط تواصلية عارم خاضع

(52) __ جان مارك فيري: فلسفة التواصل، ترجمة وتقديم: عمر مهيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، المركز الثقافي العربي، المغرب،

الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2006م، ص111.

(1) __ حسن مصدق: يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، النظرية النقدية التواصلية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،

ط1، 2005م، ص107.

(54) __ المرجع نفسه، ص125.

لمجموعة من المعايير النقدية التي تحاول توجيهه الوجهة الصحيحة.

ويقصد هابرماس بالنشاط التواصلي: «التفاعل المصاغ بواسطة الرموز، وهو يخضع للمعايير الجاري بها العمل والتي تحدد مختلف أنماط السلوك المتبادلة، على أساس أن تكون مفهومة ومعترف بها، بالضرورة، من طرف ذاتين فاعلتين على الأقل»⁽⁵⁵⁾. وهذا النشاط التواصلي لا يمكن تفعيله في غياب عنصر اللغة التي تسمح بتفعيل العقل الموجّه بدوره لتفعيل النشاط الاجتماعي الواجب ربطه بالأفعال اللغوية المختلفة لإدماج الكل في نسق تفاعلي يؤدي إلى حتمية التواصل بإحداث فعل وردّة فعل؛ أي علاقة تربط الأفراد في العالم المعيش المشترك بينهم ثقافياً وتراثياً.

إلا أن هذه العقلانية التواصلية لا تجني ثمارها دون التحلي بأخلاقيات التواصل أو النقاش، وهي مجموعة المعايير الأخلاقية المنظمة لعملية تبادل الأفكار والمعاني المبرزة لادعاء الصلاحية في علاقتها بالعالم المعيش؛ ذلك أن «إحدى نقاط القوة في تداولية Pragmatique كارل أتو أبل وهابرماس تتجلى في البرهنة على أن الأخلاق مكون أساسي للعقلنة والتواصل معا. وتختص شروط تداولية المنطق النظري بملفوظات البرهنة من أجل أن تصل عملية ما بين الذاتية. (التداوت) Intersubjectivité إلى إقرار صلاحية الأفكار المعروضة واستمرار التفاعل الإيجابي بينها»⁽⁵⁶⁾.

إذن تحتاج العقلانية التواصلية إلى فاعلية ديمقراطية تطالب بالعدالة السياسية، وتنقد العقلانية التوجيهية التي احتوت النظام السياسي والاقتصادي، وكذا الإدارة.

ب_ نظرية الفعل التواصلي:

ينطلق هابرماس في بحثه عن المعنى وسؤاله عن الحقيقة التواصلية من مدرسة أكسفورد في فلسفة اللغة؛ إذ استند على نظرية الأفعال الكلامية لجون أوستين مركّزا على القوة الإنجازية للغة، حيث يتحوّل الفعل إلى عمل يتحقّق بواسطته غرض معيّن، وقد يتحقّق أكثر من الغرض المطلوب، فعن طريق فعل القول، والفعل المتضمن في القول، والفعل الحاصل نتيجة أثر القول يحصل التفاعل في المجتمع، وتندمج أفراد، وفي هذه الحالة ينتقل الخطاب من مستوى الكفاية اللغوية إلى مستوى الكفاية التواصلية.

أراد هابرماس النهوض بالفعل التواصلي، نظرا لتميّزه بطابع محدّد للعلاقات التواصلية التي لا ترجع أو تختزل إلى مجرد تبادل الأخبار بواسطة اللغة؛ حيث لا يقوم هذا الأخير على تبادل المعلومات ضمن سياق اجتماعي فقط؛ بل يقوم بتأويل ما يحدث؛ لأنه يساهم في بناء العالم المعيش⁽⁵⁷⁾.

اشترط هابرماس في العلاقات الاجتماعية فعل التأويل المسؤول عن تطوير النقاش، والمساهمة مباشرة في بناء العالم والتغيير فيه تلبية لحاجات الأفراد، وبناء عليه أسس لنظريته الفلسفية منطلقا من إشكال حدّد فيه القصد والهدف من مشروعه قائلا: «هل تستخدم اللغة الطبيعية كوسيط لنقل المعلومات، أم أنها

⁵⁵ (Jurgen Habermas, La technique et la science comme idéologie, op, cit, p. 22.)

نقلا عن: محمد نور الدين أفاية: الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، نموذج هابرماس، أفريقيا الشرق، المغرب، لبنان، ط2، 1998م، ص182.

⁽⁵⁶⁾ _ حسن مصدق: يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت، النظرية النقدية التواصلية، ص143.

⁽⁵⁷⁾ _ الزواوي بغورة، الفلسفة واللغة، دار الطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2005 م، ط1، ص20.

مصدر للإدماج الاجتماعي»⁽⁵⁸⁾، وللإجابة عن هذا التساؤل اشترط طرائق جديدة في المناقشة أطلق عليها أخلاقيات الحوار، فكل ممارسة اجتماعية محكومة بقواعد تخاطبية تلزم الأفراد التعاون وقت تبادل الحوار مع استعمال حجج مستقيمة تسمح ببناء الخطاب، ووصوله لنتائج من شأنها التغيير في بنية الواقع والتطوير فيه بواسطة الحجاج والنقد معا.

وعليه؛ فالفعل التواصلي هو فعل يستلزم المحاججة والمناقشة النقدية، إلى جانب الحق في الرفض أو القبول، فقد وضع هابرماس مفهوم أخلاق المحادثة الذي يعتمد على اللغة العادية، بوصفه مبدأ معياريا في البلدان الديمقراطية، معتبرا أن الفرد ما إن يبدأ في الحديث أوفي الفعل التواصلي قد قبل بالاحتكام إلى معيار أخلاقي يخضع جميع الاختلافات أو الأدلة التي تحقق الإجماع، لذلك تنهض المحادثة على القاعدة الكونية الديمقراطية⁽⁵⁹⁾، التي تتضمن نقاشا ديمقراطيا يتضمن فعلا تواصليا يتجسد بكيفية عقلانية تحتوي ثلاثة أبعاد هي: «الصراع الذي يضع الأطراف المتصارعة في المواجهة، والتراضي الذي يسمح بتعايش الأطراف المتصارعة وأخيرا الإجماع الذي يحيل على التوجهات الثقافية المشتركة بين هذه الأطراف. وبذلك تعثر الديمقراطية على شرطها داخل النشاط التواصلي كنشاط عقلائي تحدده معايير متفق عليها بين الأشخاص المتفاعلين كمواطنين، لأنه بدون مشاركة فعالة للمواطن داخل نقاش ديمقراطي مفتوح، ستستوطن علاقات الهيمنة داخل المعيش اليومي»⁽⁶⁰⁾.

هكذا؛ طوّر الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس أنموذجا لسانيا فلسفيا دمج فيه التداولية بالأخلاق هو الفعل التواصلي، الذي هدف من خلاله إلى تأسيس معايير تحقق التفاهم والاتفاق في العالم المعيش، بتفعيل الحجاج والبرهان من خلال دفع الذوات إلى إقرار فعل الاجتماع لبناء مجتمع ديمقراطي.

تبدو نظرية هابرماس النقدية نظرية جادة وشاملة، ومع هذا فإن تعميمها سيؤدي إلى الوقوع في النزعة المثالية؛ ذلك أن الإقرار بوقوع اتفاق دائم يلغي الاختلاف بين الذوات، وهذا ما لا يقبله العقل البشري، كذلك يبدو الجمع بين الأخلاق والعدالة والسياسة أمر شائك وصعب إن أقررنا أن المجتمعات لا تخلو من الصراعات والنزاعات التي تطلب وسائل جديدة للتواصل غير الحوار والنقاش.

ثالثا _ إشكالية الترجمة:

تكمن إشكالية تلقي المصطلح الأجنبي وترجمته إلى العربية في الشحنة الدلالية التي يحملها، والتي تتفاوت من مترجم لآخر بحسب رؤيته إلى الموضوع ومدى ربط المصطلح بالتراث الذي ترعرع فيه، الأمر الذي يؤدي إلى ترجمة المصطلح الواحد بصيغ مختلفة، فكثيرا ما «يسعى العلماء إلى نقل العلوم المختلفة إلى لغاتهم حتى يسهل عليهم التعامل معها، فيظهر أمامهم عائق يتمثل بالصورة والآلية التي ينقلون فيها مصطلحات العلوم إلى لغتهم،

⁽⁵⁸⁾ Jurgen Habermas, La pensée post-métaphysique, op, cit, p.71.

⁽⁵⁹⁾ _ طلال راشد، المفهوم التواصلي في الفكر الفلسفي الغربي والعربي، جامعة الإمارات العربية، أبو ظبي، 2019م، ص 527.

⁽⁶⁰⁾ _ عز الدين الخطابي: المقاربة التداولية للفاعلية التواصلية، لدى هابرماس، ضمن كتاب: التداولية وتحليل الخطاب، بحوث

محكمة، إشراف وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، منتصر أمين عبد الرحيم، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1،

2014م. ص 147.

هل ينقلون المصطلحات الأجنبية بألفاظها دون تغيير ليتمكنوا من التواصل مع العلوم بصورة أيسر، أو يختارون ألفاظ لغتهم ليحافظوا بذلك على هويتهم، ويعيدوا المشاركة تارة أخرى في تطوير العلوم بصيغة تظهر مشاركتهم، وتشجذ همهم وتقوي عزائمهم»⁽⁶¹⁾.

ومنه وجب الإحاطة بالظروف التاريخية والسياسية التي نشأ فيها المصطلح دحضا للخلط المعرفي الذي قد يقع فيه المترجم، مع وجوب الإحاطة بقوانين وقواعد اللغات، دون أن ننسى الحمولة المعرفية للمصطلح، بالإضافة إلى آليات صياغته، التي أوجزها يوسف وغليسي في: الاشتقاق، والمجاز، والإحياء، والتعريب، والنحت، وآليات أخرى (الوضع والترجمة)⁽⁶²⁾.

وبالعودة لمصطلح التواصل "Communication" نقف على التعدد الذي شمله وقت نقله إلى العربية، من ذلك:

أورد طه عبد الرحمن ثلاثة معان متميزة فيما بينها، كالآتي:

أحدها، نقل الخبر؛ واصطلاح على تسمية هذا النقل بـ "الوصل".

الثاني، نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلم؛ وأطلق على هذا الضرب من النقل اسم "الإيصال".

الثالث، نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلم ومقصده الذي هو المستمع معا؛ ودعا هذا النوع من النقل باسم "الاتصال".

لقد نظر طه عبد الرحمن إلى المصطلح من ثلاث زوايا: (من جهة الخبر، ومن جهة المتكلم، ومن جهة المتكلم والمستمع معا)، وكل هذه المعاني تدلّ على التواصل.

كذلك؛ ربط التواصل بالحجاج، ورأى أنه لا مجال للتواصل من غير حجاج، ولا حجاج من غير تواصل باللسان⁽⁶³⁾.

يرى عبد الملك مرتاض أن مصطلح "التبليغ" و "الإبلاغ" مقابل للمصطلح الأوروبي "Communication" لأنه أدقّ وأدلّ على المعنى من مصطلح "التواصل"، ذلك أنّ المصطلح الأوروبي إنّما ورد في أصوله على صيغة التعدية المعنوية، على حين أن معادله العربي "التواصل" لم يرد في العربية على هذا المعنى؛ بل هو محايد لا يتعدى إلى أي معنى في غيره، وإنما يقتصر على ما فيه من معنى في نفسه⁽⁶⁴⁾.

نظر عبد الملك مرتاض للمصطلح من زاوية تراثية، موجّها نقده لبعض الكتاب العرب الذين وظّفوا مصطلح التواصل الذي رأى أنه يحمل دلالة في نفسه؛ لذا فهو قاصر عن تأدية الغرض.

(61) _ مصطفى طاهر الحيادة: إشكالية المصطلح اللغوي، منهجيات وتطلعات، إريد للبحوث والدراسات، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني، 2011م، ص266.

(62) _ ينظر: يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص79، 105.

(63) _ ينظر: طه عبد الرحمن: التواصل والحجاج، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، (د.ط)، (د.ت)، ص5.

(64) _ ينظر: عبد الملك مرتاض: نظرية التبليغ بين الحداثة الغربية والتراث العربي، مجلة تحليلات الحداثة، جامعة وهران، العدد الأول،

. يبدو أن مصطلح التواصل هيمن على بقية المصطلحات، وفي الجدول الآتي توضيح لذلك:

المصطلح	اسم المؤلف	عنوان الكتاب والصفحة
التواصل	عبد السلام المسدي عمر مهييل حسن مصدق عبد السلام عشير السعيد بوطاجين محمد نظيف الحسين زاهدي محمد إسماعيلي علوي نور الدين رايس عبد القاهر المهييري وحمادي صمود	قاموس اللسانيات ص 168 و 236. فلسفة التواصل لجان مارك فيري، ص 7. يورغن هابرماس ومدرسة فرنكفورت النظرية النقدية التواصلية، ص 21. عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ص 41. الترجمة والمصطلح دراسة في إشكالية ترجمة المصطلح النقدي الجديد، ص 218. الحوار وخصائص التفاعل التواصلية دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، ص 16. التواصل نحو مقاربة تكاملية للشفهي، ص 25. التواصل الإنساني دراسة لسانية، ص 23. سر التواصل التعبير الشفوي والتعبير الكتابي، ص 8. معجم تحليل الخطاب لباتريك شارودو ودومينيك منغنو، ص 98.
الاتصال	عمر مهييل سامية بن يامنة	إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ص 15. الاتصال اللساني وآلياته التداولية في كتاب الصناعاتين لأبي هلال العسكري، ص 16.
تناقل (الأخبار، المعلومات، الحرارة، الحركة، المرض، المشاعر...)	إبراهيم حسن أبو حسينة	التواصل في القرآن الكريم، ص 34.
الإبلاغ	عبد السلام المسدي	قاموس اللسانيات، ص 236.

نلاحظ أنّ ثمة شبه اتفاق بين النقاد والباحثين على ترجمة مصطلح "Communication" إلى "التواصل" الذي ذاع صيته وكتب له الشيوخ والتداول؛ لكن رغم ذلك نلاحظ تردّد البعض في الترجمة، كـ "عبد السلام المسدي" الذي يترجمه تارة إلى "التواصل" وتارة أخرى إلى "الإبلاغ"، كذلك "عمر مهييل" الذي يترجمه مرّة إلى

"الاتصال" ويضع التواصل مرادفاً لـ "Continuité"⁽⁶⁵⁾، ومرة أخرى إلى "التواصل"، ومن ذلك أيضاً ما أورده "إبراهيم حسن أبو حسينة" في قوله: «ونجد في الموسوعة الحرة ذكراً لأشكال وأنواع الاتصال (التواصل)»⁽⁶⁶⁾.

ويبقى السؤال المطروح هنا كيف يقابل المترجم المصطلح الواحد بأكثر من ترجمة؟ لعلّ هذا الأمر هو الذي يؤدي إلى وقوع لبس في الفهم وفوضى في الاصطلاح تعبر عن حيرة صاحبها، إضافة إلى حيرة المتلقي.

يظهر من خلال ما سبق عرضه أن مصطلح "التواصل اللساني" أعم من غيره وأوفى بتأدية الغرض، ولعل تجاذب المصطلح بين تخصصات مختلفة تتقاطع دلاليها هو الذي أدى إلى هذه الإشكالية الاصطلاحية، وهكذا تعددت زوايا المنظور فتعددت الترجمات وفقاً لذلك، إلا أن الأمر المتفق بينهم هو إعادة الاعتبار لعامل اللغة بعدها الوسيلة الأولى للتواصل الإنساني، مؤكّدين وظيفتها الاجتماعية المتمثلة في تفعيل التبادل بين أعضاء الجماعة الواحدة.

خاتمة:

أصبح مفهوم التواصل في الفكر المعاصر حقلاً تتجاذبه معارف وعلوم شتى تُعرف بالعلوم المعرفية، التي تجاوزت القول باستعمال اللغة في ظروف معينة إلى البحث عن كيفية توظيفها لتشييد العلاقات الاجتماعية التي تزيد من تمتين العلاقات بين الأفراد، وأصبحت العلاقة قائمة بين المعرفة بوصفها تداولاً وبين الكلام بوصفه أداة تواصل تفرض شروط الفهم على تلك المعرفة. وإن كانت اللغة قد وضعت لغاية قصوى هي تحقيق مفهوم النفعية الاجتماعية التي تمثل المعرفة الحقيقية المترجمة لأغراض الناس ومصالحهم؛ فإن ربطها بالتواصل سيعزز عملها وغايتها معاً.

(65) — عمر مهيبيل: إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ص 15.

(66) — إبراهيم حسن أبو حسينة: التواصل في القرآن الكريم، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط 2014، 1 م، ص 25.